

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(المُحَاضَرَةُ الحَادِيَّةُ عَشْرَةٌ)

مِنْ مَادَّةِ

[شَرْحُ الحَائِيَّةِ]

فِي اعْتِقَادِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ

www.menhag-un.com

عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقَدْرِ

فَبَعْدَ أَنْ فَرَغَ النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ ذِكْرِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ عَقِيدَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقَدْرِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَبِالْقَدْرِ الْمَقْدُورِ أَتَقِنُ فَإِنَّهُ دِعَامَةُ عَقْدِ الدِّينِ، وَالدِّينُ أَفِيحُ

وَبِالْقَدْرِ الْمَقْدُورِ أَتَقِنُ فَإِنَّهُ...: فِي هَذَا الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُ النَّاطِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ
عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقَدْرِ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ: هُوَ الرُّكْنُ السَّادِسُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَجَاءَ النَّصُّ عَلَيْهِ
فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟

قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ
خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ: هُوَ الْإِيمَانُ بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِتَقْدِيرِهِ لِلْأُمُورِ قَبْلَ حُدُوثِهَا،
وَبِأَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ، وَمَشِيئَتِهِ، وَخَلْقِهِ وَإِيجَادِهِ.

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْقَدْرِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ:

مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

هَلِ الْقَدَرُ هُوَ الْقَضَاءُ أَوْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ؟

الْجَوَابُ: كَلَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ كَانَ الْقَضَاءُ أَعَمَّ مِنَ الْقَدَرِ، فَالْقَضَاءُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْقَدَرِ؛ أَيُّ: أَنَّ اللَّهَ قَدَرَ الْأَشْيَاءَ.

وَيَأْتِي الْقَضَاءُ بِمَعْنَى أَعَمٍّ، وَهُوَ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْفَصْلُ بَيْنَهُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الباقية: ١٧].

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِي الدِّمَاءِ».

وَبِالْقَدَرِ الْمَقْدُورِ... قَالَ ابْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْنَى الْقَضَاءِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي بِهَا خَاطَبَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ، وَبِهَا نَتَخَاطَبُ وَنَتَفَاهَمُ مُرَادَنَا: أَنَّهُ الْحُكْمُ فَقَطْ، وَبِذَلِكَ يَقُولُونَ: الْقَاضِي بِمَعْنَى الْحَاكِمِ.

وَقَضَى اللَّهُ ﷻ بِكَذَا: أَيُّ: حَكَمَ بِهِ.

وَيَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى: أَمَرَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، بِلَا خِلَافٍ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ.

وَيَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى أَخْبَرَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

بِمَعْنَى: أَخْبَرْنَاهُ أَنَّ دَابِرَهُمْ مَقْطُوعٌ بِالصَّبَاحِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، أَي: أَخْبَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ.

وَيَكُونُ - أَيْضًا - بِمَعْنَى: أَرَادَ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى حَكَمَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. وَمَعْنَى ذَلِكَ: حَكَمَ بِكَوْنِهِ فَكَوَنَهُ.



مِنْهَاجُ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

مَعْنَى الْقَدْرِ لُغَةً وَشَرْعًا

وَمَعْنَى الْقَدْرِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: التَّرْتِيبُ، وَالْحَدُّ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ الشَّيْءُ.

تَقُولُ: قَدَرْتُ الْبِنَاءَ تَقْدِيرًا: إِذَا رَتَّبْتُهُ وَحَدَّدْتُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، بِمَعْنَى: رَتَّبَ أَقْوَاتَهَا وَحَدَّدَهَا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، يُرِيدُ تَعَالَى: بِرُتْبَةٍ وَحَدٍّ.

فَمَعْنَى قَضَى وَقَدَّرَ: حَكَمَ وَرَتَّبَ.

وَمَعْنَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ: حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ بِحَمْدِهِ أَوْ ذَمِّهِ، وَبِكَوْنِهِ وَتَرْتِيبِهِ عَلَى صِفَةٍ كَذَا، وَإِلَى وَقْتٍ كَذَا فَقَطُّ.

فَهَذَا مَا ذَكَرَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَصْلِ».

وَبِالْقَدْرِ الْمَقْدُورِ أَتَقِنُ....

أَتَقِنُ: مِنَ الْيَقِينِ، وَهُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ يَظْهَرُ عَلَى جَوَارِحِ الْعَبْدِ.
أَيُّ: صَدَقَ تَصَدِيقًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْقَدَرَ فِعْلُ اللَّهِ ﷻ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَبِالْقَدْرِ الْمَقْدُورِ أَتَقِنُ فَإِنَّهُ دِعَامَةُ عَقْدِ الدِّينِ

الدَّعَامَةُ: عِمَادُ الْبَيْتِ، وَيُسَمَّى السَّيِّدُ: الدَّعَامَةُ.

فَالدَّعَامَةُ أَهَمُّ مَا فِي الشَّيْءِ.

فَمِنْ أَهَمِّ مَسَائِلِ الْإِيمَانِ: الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

دَعَامَةُ عَقْدِ الدِّينِ....:

الْعَقْدُ: الْجَمْعُ بَيْنَ أَطْرَافِ الشَّيْءِ.

وَالْعَقْدُ: الضَّمَانُ وَالْعَهْدُ، وَالْعَقْدُ: الْقِلَادَةُ.

فَعَقْدُ الدِّينِ: هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، وَهُوَ مَا يَتَقَلَّدُهُ الْإِنْسَانُ وَيَعْتَقِدُهُ بِجَمِيعِ أَرْكَانِهِ لَا يَخْلُو مِنْهُ رُكْنٌ.

دَعَامَةُ عَقْدِ الدِّينِ وَالِدِّينُ أَفِيحٌ.... أَيُّ: وَالِدِّينُ أَوْسَعُ.

يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ التَّمَسَّكَ بِحَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنِنِ نَبِيِّهِ ﷺ: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ، وَهُوَ أَنْ تُسَلِّمَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَتَبَ كُلَّ شَيْءٍ، وَشَاءَ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ».

فَدَلِيلُ الْعِلْمِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وَدَلِيلُ الْكِتَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وَدَلِيلُ الْمَشِيئَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[التكوير: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[الأنعام: ٢٩].

وَدَلِيلُ الْخَلْقِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

قَالَ الشَّيْخُ حَافِظُ الْحَكَمِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي تُوصِلُ إِلَى خَيْرِهِ، وَتَحْجِزُ عَنْ شَرِّهِ هِيَ نِظَامُ الشَّرْعِ، وَلَا يَنْتَظِمُ أَمْرُ الدِّينِ وَيَسْتَقِيمُ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِالْقَدَرِ وَامْتَثَلَ الشَّرْعَ، كَمَا قَرَّرَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ لِمَنْ قَالَ لَهُ: أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا؛ فِكُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

فَمَنْ نَفَى الْقَدَرَ زَاعِمًا مُنَافَاتَهُ لِلشَّرْعِ، فَقَدْ عَطَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَجَعَلَ الْعَبْدَ مُسْتَقِلًّا بِأَفْعَالِهِ خَالِقًا لَهَا، فَأُثْبِتَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى خَالِقًا، بَلْ أُثْبِتَ أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقِينَ خَالِقُونَ، وَمَنْ أُثْبِتَهُ مُحْتَجًّا بِهِ عَلَى الشَّرْعِ، مُحَارِبًا لَهُ بِهِ، نَافِيًا عَنِ الْعَبْدِ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ الَّذِي مَنَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ، وَكَلَّفَهُ بِحَسَبِهِ زَاعِمًا أَنَّ اللَّهَ كَلَّفَ عِبَادَهُ مَا لَا يُطَاقُ، كَتَكْلِيفِ الْأَعْمَى بِنَقْطِ الْمُصْحَفِ فَقَدْ نَسَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الظُّلْمِ، وَكَانَ إِمَامُهُ فِي ذَلِكَ إبْلِيسَ -لَعْنَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ-. قَالَ تَعَالَى عَنْ إبْلِيسَ: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُؤْمِنُونَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيَنْقَادُونَ لِلشَّرْعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيُحَكِّمُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ سِرًّا وَجَهْرًا، وَالْهِدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ بِيَدِ اللَّهِ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوَاقِعِ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨]. وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَأَنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ مُرْتَبَّ عَلَى الشَّرْعِ فِعْلًا وَتَرْكًا عَلَى الْقَدَرِ.

فَعَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي بَابِ الْقَدَرِ: أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّ مَا أَصَابَ الْمَرْءَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ.



الْقَدَرُ قِسْمَانِ

وَالْقَدَرُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الأَوَّلُ: الْقَدَرُ الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ الْمُرَادِفُ لِـ (الْمَحَبَّةِ).

والثَّانِي: الْقَدَرُ الْكَوْنِيُّ، وَهُوَ الْمُرَادِفُ لِـ (الْمَشِيئَةِ).

وَالْقَدَرُ الشَّرْعِيُّ: يُعْبَرُ عَنْهُ بِـ (الْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ)، وَهِيَ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي، فَمَا أَمَرَ بِهِ شَرْعًا فَهُوَ يُحِبُّهُ، وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ يَكْرَهُهُ، فَالصَّلَاةُ يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَالزَّانَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَالِقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْخَيْرُ مُرَادٌ لِدَاتِهِ، وَالشَّرُّ مُرَادٌ لِغَيْرِهِ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.



الإِرَادَةُ قِسْمَانِ

وَقَسَّمُوا الإِرَادَةَ إِلَى إِرَادَتَيْنِ:

* إِرَادَةُ شَرْعِيَّةٍ.

* وَإِرَادَةُ كَوْنِيَّةٍ.

وَمِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَ الإِرَادَتَيْنِ:

الْفَرْقُ الْأَوَّلُ: الإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ: تَكُونُ فِي الْمَحْبُوبِ، وَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ: تَكُونُ فِي الْمَحْبُوبِ وَغَيْرِ الْمَحْبُوبِ.

الثَّانِي: الإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ: قَدْ تَقَعُ، وَقَدْ لَا تَقَعُ؛ فَاللَّهُ يُرِيدُ الْإِيمَانَ مِنَ النَّاسِ شَرْعًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وَهَذَا يَتَحَقَّقُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ لَا مِنْ كُلِّهِمْ، وَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ: لَا بُدَّ أَنْ تَقَعُ، مِثَالُهُ: أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنْ زَيْدٍ الْإِيمَانَ، فَلَا يَتَخَلَّفُ، وَأَرَادَ مِنْ أَبِي جَهْلٍ الْكُفْرَ، هَلْ يُمَكِّنُ لِأَبِي جَهْلٍ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ؟ الْجَوَابُ: لَا.

فَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ: لَا بُدَّ أَنْ تَقَعُ، وَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ: هِيَ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِهَذَا يُقَالُ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَا شِئْتُ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

وَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ تَجْتَمِعَانِ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِ الطَّائِعِ؛ فَاللَّهُ أَرَادَ شَرْعًا وَكَوْنًا مِنْ أَبِي بَكْرٍ الْإِيمَانَ، عَرَفْنَا ذَلِكَ بِأَنْ أَبَا بَكْرٍ آمَنَ.

وَتَفَتَّرِقَانِ -يَعْنِي: الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ- فِي حَقِّ الْكَافِرِ، فَاللَّهُ يُحِبُّ مِنَ الْكَافِرِ الْإِيمَانَ، وَيُرِيدُ الْإِيمَانَ مِنْهُ شَرْعًا، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَهُ بِهِ، لَكِنْ مَا أَرَادَ لَهُ الْإِيمَانَ كَوْنًا، وَلَا وَفَّقَهُ لِلْإِيمَانِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِلْإِيمَانِ.

بَقِيَ مَنْ يَقُولُ: كَيْفَ يُرِيدُ مِنْهُ الْإِيمَانَ، وَلَمْ يُوفَّقْهُ؟

فَالْجَوَابُ: اللَّهُ ﷻ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

وَيَقُولُ: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

خَلَقَ الْخَلْقَ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ وَبِمَصَالِحِهِمْ، فَعَلِمَ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ؛ فَوَفَّقَهُ لِلْخَيْرِ فَضْلًا مِنْهُ، وَعَلِمَ مِنْ ذَلِكَ الشَّرِّ فَلَمْ يُوفَّقْهُ عَدْلًا مِنْهُ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ:

إِنْ عَذَّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعَّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

وَالْخَلْقَ مِلْكُهُ وَخَلَقَهُ؛ مَنْ شَاءَ وَفَّقَهُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ، وَمَنْ شَاءَ لَمْ يُوفَّقْهُ وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ثُمَّ عَقَلًا: لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ دَلَّكَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ مَصْلَحَةٍ نَفْسِكَ أَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهِ، فَتَنْبَهَ تَخْرُجَ مِنْ مَزَالِقِ أَهْلِ الضَّلَالِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: يَجِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

فَعُلِ الْأَصْلَحُ لِلْعَبْدِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَكَ قَابِلًا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَآتَاكَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا مَشِيئَةً تَحْتَ مَشِيئَتِهِ، فَأَنْتَ الَّذِي تَخْتَارُ - فِي الْأُمُورِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ -، وَأَمَّا مَا هُوَ وَاقِعٌ عَلَيْكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُحَاسِبُكَ عَلَى مَا أَنْتَ مَجْبُورٌ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يُحَاسِبُكَ عَلَى أَنْتَ مُخَيَّرٌ فِيهِ.

وَكَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَهُ الْعِلْمُ الْمُحِيطُ، فَهُوَ يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ، وَيَعْلَمُ اخْتِيَارَكَ فِيمَا أَنْتَ مُخْتَارٌ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجْبِرَكَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مَا سَوْفَ تَخْتَارُ؛ لِأَنَّهُ لَهُ الْعِلْمُ الْكَامِلُ الشَّامِلُ الْمُحِيطُ، فَكُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ اخْتِيَارَكَ بِمَشِيئَتِكَ أَنْتَ، وَشَاءَ لِمَا اخْتَرْتَهُ أَنْ يَقَعَ فِي مُلْكِهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ رُبَّمَا اخْتَارَ الْكُفْرَ، وَاللَّهُ ﷻ لَا يُجْبِرُهُ أَحَدٌ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِاخْتِيَارِكَ أَنْ يَقَعَ فِي مُلْكِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْتَلِيكَ وَيُحَاسِبَكَ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِيُحَاسِبَكَ عَلَى مَا قَدَّمْتَ يَدَكَ.

فَهَذَا التَّكْلِيفُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَشِيئَةِ الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ لِلْعَبْدِ، وَالْإِرَادَةِ الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ لِلْعَبْدِ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ، فَيَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ، فَيَكْتُبُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُجْبَرًا عَلَى فِعْلٍ مَا أَنْتَ مُخْتَارٌ فِيهِ، بَلْ أَنْتَ الَّذِي اخْتَرْتَ، وَاللَّهُ ﷻ إِنْ اخْتَرْتَ الْهُدَى أَمَدَكَ بِالْهُدَايَةِ الْخَاصَّةِ، وَأَمَّا إِذَا اخْتَارَ الْإِنْسَانُ الضَّلَالَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُمْلِي لَهُ فِي ضَلَالِهِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

فَالْإِنْسَانُ مَسْئُولٌ عَنْ أَعْمَالِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ، وَهُوَ مُكَلَّفٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا،
وَاللَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا بِمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُجْبِرُ الْإِنْسَانَ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ ثُمَّ يُثِيبُهُ
عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هَذَا عِبَثٌ، وَلَا يُجْبِرُ الْإِنْسَانَ عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ ثُمَّ يُحَاسِبُهُ عَلَى مَا هُوَ
مُجْبَرٌ عَلَيْهِ، فَهَذَا ظُلْمٌ!

وَاللَّهُ تَعَالَى مُنْزَعٌ عَنِ الْعِبَثِ وَالظُّلْمِ، بَلْ أَنْتَ الَّذِي تَخْتَارُ، أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ،
وَمَشِيتُكَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْفَازَ مَشِيتِكَ، شَاءَ اللَّهُ
لِمَا شِئْتَ أَنْ يَقَعَ فِي كَوْنِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ لَا يَقَعُ فِي كَوْنِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ.



جامعة

مِنْهَاجُ النَّبِيِّ

www.menhag-un.com

مَرَاتِبُ الْقَدْرِ أَرْبَعَةٌ

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ:

وَالْمُرَادُ بِهَا الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ بِمَا كَانَ، وَبِمَا يَكُونُ، وَمَا سَيَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ فِي الْكَوْنِ شَيْءٌ إِلَّا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ.

فَتَوْمِنْ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ: أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

وَتَأْسِيسًا عَلَى هَذَا الْعِلْمِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ الْمُحِيطِ جَاءَتِ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْكِتَابَةِ:

وَالْمُرَادُ بِهَا: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كُلَّ شَيْءٍ، وَجَاءَ التَّصْرِيحُ بِهَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

فَتَأْسِيسًا عَلَى عِلْمِ اللَّهِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ الْمُحِيطِ، وَعِلْمِهِ بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، كَتَبَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

الْمُرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: مَرْتَبَةُ الْمَشِيشَةِ: وَالْمُرَادُ بِهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ الْأَشْيَاءَ وَشَاءَ وَقُوعَهَا، وَأَنَّهُ لَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيشَتِهِ وَإِرَادَتِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

مَرْتَبَةُ الْإِيحَادِ وَالْخَلْقِ: هِيَ الْمُرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَالْمُرَادُ بِهَا: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَأَوْجَدَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٦٩].

فَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الْأَرْبَعُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَا أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا بِالْقَدَرِ، أَنْ يُؤْمِنَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْكِتَابَةِ كِتَابَةِ الْأَشْيَاءِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ خَلْقِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ
يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ، مَرْتَبَةُ الْمَشِيئَةِ، وَيُؤْمِنُ بِمَرْتَبَةِ الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ،
وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.



جامعة

مِنْهَاجُ النَّبِيِّ

www.menhag-un.com

هَلِ الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ يُنَافِي الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ؟

هَلِ إِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ بِالْأَسْبَابِ يُنَافِي ذَلِكَ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ؟

فَعُلِ الْأَسْبَابِ، وَالْأَخْذُ بِهَا مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَافِلَةٌ بِاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ فِي مُخْتَلِفِ شُؤْنِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالسَّعْيِ فِي الْأَرْضِ وَطَلَبِ الرِّزْقِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وَأَمَرَ الْمُسَافِرِينَ بِالتَّزَوُّدِ لِلْحَجِّ: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وَأَمَرَ بِإِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِلْعُدُوِّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَأَمَرَ مَرْيَمَ ٱلْعَلَيْهَا حِينَ وَلَدَتْ بِهِزَّ جَذَعِ النَّخْلَةِ: ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ الْجَنَّةُ النَّخْلَةِ سَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَإِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ مَا أَمَرَ بِهِ مُتَّكِلاً عَلَى الْكِتَابِ -يَعْنِي: عَلَى الْقَدَرِ- كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْمَكْتُوبِ الْمَقْدُورِ الَّذِي يَصِيرُ بِهِ شَقِيًّا، وَكَانَ قَوْلُهُ

ذَلِكَ بِمَنْزِلَةٍ مَنْ يَقُولُ: أَنَا لَا أَكُلُ وَلَا أَشْرَبُ، فَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَضَى بِالشَّبَعِ وَالرَّيِّ حَصَلَ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ. أَوْ يَقُولُ: لَا أَجَامِعُ امْرَأَتِي فَإِنَّ اللَّهَ قَضَى لِي بِوَلَدٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ جَاهِلُونَ ضَالُّونَ... إِلَى أَنْ قَالَ: الْأُمُورُ أَمْرَانِ: أَمْرٌ فِيهِ حِيلَةٌ، وَأَمْرٌ لَا حِيلَةَ فِيهِ، فَمَا فِيهِ حِيلَةٌ لَا يُعْجَزُ عَنْهُ، وَمَا لَا حِيلَةَ فِيهِ لَا يُجْزَعُ مِنْهُ».

فَهَذَا كَالْتَوَاطَةِ وَالْمَقْدَمَةِ أَمَامَ هَذَا الْأَصْلِ مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ، وَالرُّكْنِ السَّادِسِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ وَهُوَ: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ.

وَبِالْقَدَرِ الْمَقْدُورِ أَيَقِنُ فَإِنَّهُ دِعَامَةُ عَقْدِ الدِّينِ، وَالدِّينُ أَفِيحٌ

فَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ هُوَ الرُّكْنُ السَّادِسُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ كَمَا فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ: هُوَ الْإِيمَانُ بِعِلْمِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَبِأَفْعَالِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَخَلْقِهِ وَإِيجَادِهِ، وَهُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

فَكَمَا تَرَى فِي تَعْرِيفِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، تُذَكِّرُ مَرَاتِبُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

أَيُّ: قَدَرٌ وَقُوعُهُ، وَشَاءَ وَجُودُهُ وَخَلْقُهُ، وَقَدَرٌ صِفَاتِهِ وَوَقْتُهُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ، كُلُّ شَيْءٍ، فَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ بِهِ، وَمِنْ جِهَةِ كِتَابَتِهِ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، وَمِنْ جِهَةِ مَشِيئَةِ اللَّهِ لَهُ فِي وَفْتِهِ، وَمِنْ جِهَةِ خَلْقِهِ وَإِيجَادِهِ، فَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ صِفَاتٌ جَعَلَهَا اللَّهُ لَهُ لَا يَزِيدُ عَنْهَا وَلَا يَنْقُصُ، فَهَذَا شَيْءٌ مُقَدَّرٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمَطَرِ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وَالْمَطْرُ مَعْلُومٌ الْكَمِّيَّةُ، وَمَعْلُومٌ مَكَانِ النُّزُولِ، وَوَقْتُ النُّزُولِ، فَهُوَ مَعْلُومٌ
لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَلِمَهُ، وَخَلَقَهُ،
وَقَدَّرَهُ، لَمْ يُوجَدْ بِدُونِ خَلْقِهِ، وَلَا مِنْ غَيْرِ سَابِقِ تَقْدِيرٍ، وَمِنْ غَيْرِ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي
اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَشَاءَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَيُرِيدَهُ.

فَأُمُورُ الْكَوْنِ لَيْسَتْ فَوْضَى، وَإِنَّمَا هِيَ مُنْضَبِطَةٌ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ لَهَا، وَإِجَادِهِ لَهَا،
وَمَشِيئَتِهِ لَهَا بِصِفَاتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا، فَهَذَا أَمْرٌ مِنْهُمْ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ضَلَّتْ فِيهِ أَفْهَامٌ، وَزَلَّتْ فِيهِ أَقْدَامٌ مِمَّنْ لَمْ يَنْظُرُوا
فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، وَإِنَّمَا اعْتَمَدُوا عَلَى عُقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ،
فَتَخَبَّطُوا فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ تَخَبُّطًا فَظِيعًا، وَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَأَمَّنُوا
بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ وَفَرَضَهُ عَلَى عِبَادِهِ بِمُوجِبِ نُصُوصِ الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ كَعَادَتِهِمْ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْعَقِيدَةِ.

* وَالْبَحْثُ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أُمُورًا كَثِيرَةً:

أَوَّلًا: مَعْنَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ:

الْقَدَرُ: هُوَ تَقْدِيرُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لِلْأَشْيَاءِ، وَإِرَادَتُهُ لَهَا، وَإِجَادَتُهَا فِي وَقْتِهَا.
هَذَا مَعْنَى الْقَدَرِ، وَكَذَلِكَ مَعْنَى الْقَضَاءِ.

وَعَالِبًا يَأْتِي التَّغْيِيرُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا أَنَّ الْقَضَاءَ أَعَمُّ مِنَ
الْقَدَرِ؛ لِأَنَّ الْقَضَاءَ يَأْتِي بِمَعْنَى الْقَدَرِ بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ وَقَضَاهَا، وَيَأْتِي
بِمَعْنَى الْفَصْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْحُكْمِ بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ كَمَا مَرَّ.

فَالْقَضَاءُ أَعْمُ مِنَ الْقَدَرِ، فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ.

ثَانِيًا: حُكْمُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ:

الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَاجِبٌ وَفَرَضٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ؛ لِأَنَّهُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ، وَلِأَنَّهُ إِيمَانٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلِهَذَا قَالُوا: الْقَدَرُ قُدْرَةُ اللَّهِ، فَمَنْ جَحَدَهُ فَقَدْ جَحَدَ قُدْرَةَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَفِي بَعْضِ الْعِبَارَاتِ: الْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ.

وَالْبَحْثُ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَعَدَّى فِيهِ مَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالتَّعَمُّقُ فِيهِ يُفْضِي إِلَى الضَّلَالِ وَالْحَيْرَةِ؛ لِأَنَّهُ سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَأَنْتَ حِينَ تَتَعَمَّقُ وَتَبْحَثُ فِيهِ لَنْ تَصِلَ إِلَى نَتِيجَةٍ؛ لِأَنَّكَ تَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ أَسْرَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْ خَلْقِهِ، وَحَسْبُكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِهِ، فَمَا تَعَمَّقَ فِيهِ أَحَدٌ وَوَصَلَ إِلَى نَتِيجَةٍ! بَلْ وَصَلَ إِلَى الْحَيْرَةِ وَالِاضْطِرَابِ، فَحَسْبُكَ أَنْ تَتَمَشَّى مَعَ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي اثْبَاتِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَيَكْفِيكَ هَذَا.

وَلَنَعْلَمَ جَمِيعًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْنَا الْإِيمَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُيسِّرًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ إِلَّا بِمَا يُسْتَطَاعُ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَهُوَ أَلْغَاؤُ وَاحْتِجَةُ بِحَيْثُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَهُ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا!

لِأَنَّهُ مَفْرُوضٌ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ دَخَلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُيسِّرًا لِفَهْمِهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يُؤْمِنُ بِهِ؟

وَأَمْرُهُ سَهْلٌ بِفَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فَلْنَنْظُرْ فِي مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ مَرَّةً أُخْرَى:

الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَتَرْتَّبُ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ:

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ بِعِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَعْلَمُهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَالْآيَاتُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ الْكَلَامِ وَالنَّجْوَى فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهُوَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

فَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى شَامِلٌ لِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا الشَّامِلِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ لِلْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّ الْكَوْنَ كُلُّهُ مَكْشُوفٌ أَمَامَ اللَّهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً، الزَّمَانُ مِنْ مَاضٍ وَحَاضِرٍ وَمُسْتَقْبَلٍ لِي وَلَكَ، وَكَذَلِكَ الْمَكَانُ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ!

فَهَذَا قَانُونٌ لِلْمَخْلُوقِ لَا لِلْخَالِقِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ الْكَوْنَ كُلُّهُ مَكْشُوفٌ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ بِعِلْمِهِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ الْمُحِيطِ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا كَانَ بِالنِّسْبَةِ لَنَا مَاضِيًا، وَمَا هُوَ كَائِنٌ أَيْ: حَاضِرٌ، وَمَا سَيَكُونُ أَيْ: فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ.. اللَّهُ عَلِيمٌ بِهَذَا كُلِّهِ.

فَجَاءَتِ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ وَهِيَ: أَنْ نُؤْمِنَ وَنَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كُلَّ شَيْءٍ، وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ لَوْحٌ مَخْلُوقٌ، لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ وَسَعَتَهُ إِلَّا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، فَهُوَ عِنْدَهُ جَلَّ وَعَلَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَنُؤْمِنُ بِالْكِتَابَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ. فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَفِي الْحَدِيثِ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». وَالْحَدِيثُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ».

أَيُّهُمَا أَسْبَقُ .. - أَيُّ فِي الْخَلْقِ - الْعَرْشُ أَمْ الْقَلَمُ؟

قَالَ قَوْمٌ: الْعَرْشُ أَسْبَقُ مِنَ الْقَلَمِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: الْقَلَمُ أَسْبَقُ مِنَ الْعَرْشِ.

وَقَوْمٌ فَصَّلُوا.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدِّيَانِ

قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمْدَانِيِّ

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي

هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ؟

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانٍ
وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَضْلِ زَمَانٍ
فَالْكِتَابَةُ مُقَارِنَةٌ لَوْجُودِ الْقَلَمِ، حِينَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الْوُجُودُ، فَالْعَرْشُ أَسْبَقُ.

هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

قَدَّرَهَا قَبْلَ الْكِتَابَةِ ثُمَّ كَتَبَهَا، فَالْكِتَابَةُ مُقَارِنَةٌ لَوْجُودِ الْقَلَمِ، وَوُجُودِ الْقَلَمِ مُتَأَخِّرٌ عَنِ وُجُودِ الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ أَسْبَقُ.

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ اسْتِطْرَادِيَّةٌ، لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا؛ لِأَنَّهَا تَدْخُلُ فِي مَرْتَبَةِ الْكِتَابَةِ، وَهِيَ الْكِتَابَةُ الْعَامَّةُ الشَّامِلَةُ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ.

قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ فَيَقُولُ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَأْمُرُ الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِالْأَجَنَةِ أَنْ يَكْتُبَ الرِّزْقَ، وَالْأَجَلَ وَالشَّقَاوَةَ، وَالسَّعَادَةَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكِتَابِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ؟!

الْجَوَابُ: هَذِهِ الْكِتَابَةُ تَفْصِيلٌ لِلْكِتَابَةِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْكِتَابَةِ السَّابِقَةِ الَّتِي فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

فِي أُمِّ الْكِتَابِ مَكْتُوبٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَهَذَا الَّذِي فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَا يَتَغَيَّرُ.

فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ جَاءَ أَنَّ اللَّهَ يَقْدَرُ مَا يَجْرِي فِي السَّنَةِ مِنْ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ، وَمِنْ جَذْبٍ أَوْ خَصْبٍ، أَوْ رَخَصِ الْأَسْعَارِ أَوْ غَلَاءِ الْأَسْعَارِ، أَوْ الْحُرُوبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، هَذَا كُلُّهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

لِذَلِكَ سُمِّيَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؛ لِأَنَّهُ يَقْدَرُ فِيهَا مَا يَجْرِي فِي السَّنَةِ؛ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

الْكِتَابَةُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ نُسْخَةٌ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْكِتَابَةِ الْعَامَّةِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فِي السَّنَةِ إِلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ بَعْدَهَا، وَلَا تَنَافِي وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ.

وَيَدُلُّ عَلَى هَاتَيْنِ الدَّرَجَتَيْنِ - أَوِ الْمَرْتَبَتَيْنِ (الْعِلْمِ وَالْكِتَابَةِ) - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

نَبْرَأَهَا: أَيُّ: نُوْجِدَهَا، وَنَخْلُقُهَا.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي مِنَ الْمَصَائِبِ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ: مَرْتَبَةُ الْمَشِئَةِ وَالْإِرَادَةِ.

كُلُّ شَيْءٍ يَقَعُ فَهُوَ بِمَشِئَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ سُبْحَانَهُ مَا لَا يَشَاءُوهُ، وَلَا مَا لَا يُرِيدُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

كُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ قَدْ شَاءَهُ اللَّهُ وَأَرَادَهُ وَأَوْجَدَهُ، بَعْدَمَا عَلِمَهُ وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَاهَا﴾ [الحديد: ٢٢]. أَي: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَهَا وَنُوجِدَهَا، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى مَرْتَبَةِ الْكِتَابَةِ، وَمَرْتَبَةِ الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ، وَمَرْتَبَةِ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ.

فَهَذِهِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَا:

الْأُولَى: مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ.

الثَّانِيَةُ: مَرْتَبَةُ الْكِتَابَةِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

الثَّالِثَةُ: مَرْتَبَةُ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ عِنْدَ وَقُوعِ الشَّيْءِ.

الرَّابِعَةُ: مَرْتَبَةُ خَلْقِ الشَّيْءِ وَإِيجَادِهِ.

هَذِهِ مَرَاتِبُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، مَنْ جَحَدَ وَاحِدَةً مِنْهَا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

فَالْأَمْرُ كَمَا تَرَى لَوْ فَهِمْنَاهُ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ قَرِيبٌ دَانٍ يَسِيرٌ - بِفَضْلِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ - .

خَلَقَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا سَيَقَعُ مِنَّا، وَجَعَلَنَا مُسِيرِينَ فِي أُمُورٍ، وَمُخِيرِينَ فِي أُمُورٍ، وَاللَّهُ لَا يُحَاسِبُنَا إِلَّا عَلَى مَا نَحْنُ مُخِيرُونَ فِيهِ، وَهَذَا آتَانَا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ، وَالْمَشِيئَةَ وَالْإِرَادَةَ لِفَعْلِهِ أَوْ عَدَمِ فَعْلِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ اخْتِيَارَنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَنَا - لِأَنَّهُ خَالِقُنَا -، وَيَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ مِنَّا، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَنَا، وَأَنْ يَتَلَبَّسَ بِكُلْفِنَا، وَجَعَلَ لَنَا اخْتِيَارًا وَمَشِيئَةً تَحْتَ مَشِيئَتِهِ، وَعَرَضَ هَذَا عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَ أَمَانَةَ التَّكْلِيفِ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، فَقَبِلَ الْإِنْسَانُ أَمَانَةَ التَّكْلِيفِ بِ(افْعَلْ، وَلَا تَفْعَلْ)!

وَاللَّهُ ﷻ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا؛ لِذَلِكَ فَهُوَ يُكَلِّفُهُمْ بِمَا يَسْتَطِيعُونَ، وَبِمَا يُقَدِّرُهُمْ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ اخْتِيَارًا وَمَشِيئَةً وَإِرَادَةً، وَحَذَّرَهُمْ وَرَغَّبَهُمْ، وَحَثَّهُمْ وَنَفَرَهُمْ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ طَرِيقَ الْحَقِّ وَطَرِيقَ الضَّلَالِ، وَطَرِيقَ الْهِدَايَةِ وَطَرِيقَ الْغَوَايَةِ، وَجَعَلَ كُلًّا عَلَى رَأْسِ الطَّرِيقَيْنِ، وَأَرْسَلَ الرُّسُولَ، وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ، وَقَطَعَ الْعُذْرَ، وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ مُخْتَارًا ذَا مَشِيئَةٍ فَهُوَ يَخْتَارُ فِيمَا هُوَ مُخْتَارٌ فِيهِ، وَرَفَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحَرَجَ عَنْهُ فِيمَا هُوَ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ، وَلَوْ تَلَفَّظَ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ مُكْرَهًا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحَاسِبُهُ.

وَكَذَلِكَ جَعَلَ هَذَا الْإِخْتِيَارَ رَاجِعًا إِلَى الْعَقْلِ، فَجَعَلَ الْعَقْلَ مَنَاطَ التَّكْلِيفِ؛ بِحَيْثُ إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَمِلْ كَمَا فِي حَالِ الصَّبِيِّ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ يُرْفَعَ

الْقَلَمُ عَنْهُ، فَلَا يُحَاسِبُهُ، وَإِذَا مَا عَرَضَ عَارِضٌ لِهَذِهِ الْأَهْلِيَّةِ فَذَهَبَ الْعَقْلُ، رُفِعَ التَّكْلِيفُ وَالْقَلَمُ أَيْضًا.

إِذَنْ: اللَّهُ يُحَاسِبُنَا، وَقَدْ آتَانَا كُلَّ مَا يَلْزُمُنَا مِنْ أَجْلِ أَنْ نَأْتِيَ بِمَا كَلَّفْنَا، وَأَعْطَانَا الْإِرَادَةَ وَالْقُدْرَةَ وَالْمَشِيئَةَ أَيْضًا عَلَى أَلَّا نَفْعَلَ مَا كَلَّفْنَا بِهِ، ثُمَّ هُوَ يَمُدُّ لَنَا فِي سُبُلِ الْهِدَايَةِ إِنْ اهْتَدَيْنَا بِالْهِدَايَةِ الْعَامَّةِ، فَيُنْعِمُ عَلَيْنَا بِالتَّوْفِيقِ بِالْهِدَايَةِ الْخَاصَّةِ، وَأَمَّا إِذَا ضَلَّ الْإِنْسَانُ وَعَانَدَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَدْعُهُ، وَيُمْلِي لَهُ فِي بَاطِلِهِ، فَيَأْخُذُ بِأَسْبَابِ الضَّلَالِ وَهُوَ يُحَاسِبُ بِمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَمَهْمَا اخْتَارَ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ يَأْذُنُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِوُقُوعِهِ فِي كَوْنِهِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِذْنِ بِأَنْ يَقَعَ فِي كَوْنِهِ جَلَّ وَعَلَا وَهِيَ الْمَشِيئَةُ الْكُونِيَّةُ؛ لِأَنَّ الْمَشِيئَةَ الْكُونِيَّةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِمَا يُوجَدُ وَيَشَاوُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكُونِ، سَوَاءً كَانَ مُحْبُوبًا لَهُ تَعَالَى مِمَّا أَمَرَ بِهِ، أَوْ الْكَفَّ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، أَوْ كَانَ مَبْغُوضًا لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَكْرُوهًا عِنْدَهُ كَالْكَفْرِ وَالْفَوَاحِشِ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ يَأْذُنُ اللَّهُ بِأَنْ يَقَعَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ بِمَشِيئَتِهِ، وَهِيَ الْإِرَادَةُ الْكُونِيَّةُ.

فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ كَلَّفَنَا وَأَعْطَانَا مَا نَسْتَطِيعُ بِهِ أَنْ نَأْتِيَ بِهَذَا التَّكْلِيفِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ مِنَّا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنَا، وَكَتَبَ ذَاكَ عِنْدَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَلَمَّا أَوْجَدْنَا وَاخْتَرْنَا بِمَحْضِ اخْتِيَارِنَا وَمَشِيئَتِنَا، وَشَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا شِئْنَا نَحْنُ مِنْ اخْتِيَارِنَا، فَهَذَا يُوَافِقُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لَا يُخَالِفُهُ، وَلَيْسَتْ الْكِتَابَةُ السَّابِقَةُ تَعْنِي الْجَبْرَ

عَلَى أَنْ يَأْتِيَ الْإِنْسَانُ بِالْمَكْتُوبِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُوَافِقَ الْفِعْلَ الْمَكْتُوبَ؛ لِأَنَّ الْمَكْتُوبَ كُتِبَ عَلَى مُقْتَضَى الْعِلْمِ فَهُوَ لَا يَتَخَلَفُ.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا سَنَفْعَلُ مِمَّا نَحْنُ مُخْتَارُونَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَفْعَلَهُ فَكُتِبَ، وَيَأْتِي فِعْلُنَا مُطَابِقًا لِلْكِتَابَةِ، فَالْكِتَابَةُ لَا تَعْنِي الْجَبْرَ، وَإِنَّمَا تَعْنِي سَابِقَ الْعِلْمِ كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْمَرْتَبَةَ الْأُولَى مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ هِيَ مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ، وَعِلْمُ اللَّهِ كَامِلٌ شَامِلٌ مُحِيطٌ، وَهُوَ يَعْلَمُ اخْتِيَارِي مِنْ قَبْلِ أَنْ اخْتَارَ، فَيَأْتِي اخْتِيَارِي حَتْمًا مُوَافِقًا لِلْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَخَلَفُ، وَالْعِلْمُ عَلَى مُقْتَضَاهُ، كُتِبَ مَا سَاخَرْتَاهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَيَأْتِي اخْتِيَارِي مُطَابِقًا لِمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

مَا كَانَ مِنْ اخْتِيَارٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِاخْتِيَارِي أَنَا، وَأَمَّا مَا يَقَعُ عَلَيَّ أَوْ فِيَّ فَإِنَّ هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِمُقَدِّمَاتٍ مِنِّي؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُحَاسِبُنِي عَلَيْهِ إِذَا كَانَتْ رِدَّةٌ فِعْلِي عَلَى مَا قَضَى اللَّهُ عَلَيَّ أَوْ فِيَّ لَا خَارِجَةً عَنِ الشَّرْعِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مُطَابِقَةً لِلشَّرْعِ الْأَغَرِّ، فَلَا اعْتِرَاضَ وَلَا تَسْخُطَ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ هَذِهِ الْبَلِيَّةُ عَطِيَّةً مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَتَكُونُ هَذِهِ الْمِحْنَةُ مِنْحَةً مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَاخْتِبَارًا وَابْتِلَاءً، وَلَكِنَّ هَذَا الَّذِي قُضِيَ عَلَى الْعَبْدِ لَا يُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ الرَّبُّ إِذَا كَانَ مُضْطَرًّا إِلَيْهِ، أَوْ كَانَ وَاقِعًا عَلَيْهِ عَلَى حَسَبِ مَا مَرَّ.

إِذَنْ: مَا اخْتَرْتَهُ أَنْتَ هُوَ مَا تُحَاسِبُ عَلَيْهِ، لَا يَظْلِمُكَ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْتَ الَّذِي اخْتَرْتَ، فَالَّذِي كَفَرَ اخْتَارَ الْكُفْرَ، وَالَّذِي آمَنَ اخْتَارَ الْإِيمَانَ، اللَّهُ يَعْلَمُ

ذَلِكَ، وَكَتَبَهُ عِنْدَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَيَأْتِي فِعْلُ الْعَبْدِ مُطَابِقًا لِلْمَكْتُوبِ عَلَى حَسَبِ سَابِقِ الْعِلْمِ.

ضُرِبَ لِهَذَا أَمْثَلَةٌ: كَالْمُعَلِّمِ الَّذِي يَخْتَبِرُ تَلَامِيذَهُ، وَيَضَعُ التَّقْدِيرَ بِالدرَجَاتِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَضَعَ الْأَسْئَلَةَ، ثُمَّ يَخْتَبِرُهُمْ فَتُصَحِّحُ أَوْ رَاقُهُمْ، وَتَأْتِي درَجَاتُهُمْ مُطَابِقَةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ طُلَّابُهُ وَتَلَامِيذُهُ، وَيَعْلَمُ مُسْتَوِيَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةَ، وَيَعْلَمُ قُدْرَتَهُمْ عَلَى إِجَابَةِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي وَضَعَهَا لَهُمْ، فَلَمَّا وَضَعَ الدَّرَجَاتِ قَبْلَ آدَاءِ الْإِخْتِبَارِ، ثُمَّ صَحَّحَتِ الْأَوْرَاقُ، جَاءَتِ النَتِيجَةُ مُطَابِقَةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ طُلَّابُهُ وَتَلَامِيذُهُ.

فَهَلْ سَابِقُ عِلْمِهِ بِمَا أَتَوْا بِهِ كَانَ هُوَ الَّذِي أَجْبَرَهُمْ عَلَى أَنْ يَكْتُبُوا إِجَابَاتِهِمْ عَلَى وَفْقِ مَا يَتِمُّ التَّصْحِيحُ وَالتَّقْدِيرُ بِالدرَجَاتِ الْمُطَابِقَةِ لِمَا وَضَعَهُ أَسْتَادُهُمْ؟! إِنَّمَا هَذَا عَلَى سَابِقِ عِلْمِهِ بِهِمْ مَعَ أَنَّ هَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ، فَهَذَا عِلْمٌ بَشَرِيٌّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الطُّلَّابِ مَنْ هُوَ خَبِيثٌ يُذَاكِرُ بِحَيْثُ لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ، وَيُمَوِّهُ عَلَى الطُّلَّابِ وَعَلَى الْأُسْتَاذِ أَنَّهُ بَلِيدٌ غَيْرُ حَازِقٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ.

أَمَّا مَعَ اللَّهِ؛ فَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

إِذَنْ: سَبَقُ الْعِلْمِ الَّذِي رُبَّتْ عَلَيْهِ الْكِتَابَةُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لَا يَعْنِي الْجَبْرَ لَكَ فِيمَا أَنْتَ مُخْتَارٌ فِيهِ، أَنْتَ الَّذِي تَخْتَارُ.

فَاتَّقِ اللَّهَ رَبَّكَ!!

وَاحْمِلْ مَسْئُولِيَّتَكَ!

وَالْإِيْمَانُ بِالْقَدْرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ يَجْعَلُ الْأُمَّةَ مُقَاتِلَةً؛ مِنْ أَجْلِ التَّرَقِّي فِي سُلْمِ التَّرَقِّي الْإِنْسَانِي؛ لِكَيْ تَكُونَ قَائِدَةً لِلْأُمَّمِ فِي أُمُورِ الْمَادَّةِ كَمَا هِيَ قَائِدَةٌ لِلْأُمَّمِ فِي أُمُورِ الشَّرِيعَةِ وَالرُّوحِ، وَلَكِنْ لَمَّا جَعَلُوا الْكِتَابَةَ السَّابِقَةَ جَبْرًا لِلْإِنْسَانِ، وَأَنَّ الْمَكْتُوبَ عَلَى الْجَبِينِ لَا بُدَّ أَنْ تَرَاهُ الْعَيْنُ - كَمَا يَقُولُونَ - تَوَاكَلُوا وَتَرَكَوْا الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ فَتَخَلَّفُوا!!

حَتَّى عَيَّرْنَا الْكُفَّارَ -أَي: عَيَّرُوا الْأُمَّةَ- بِأَنْ سَبَبَ تَخَلُّفَهَا مَا يَأْتِي مِنْهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُتَوَاكِِلُونَ.. هَؤُلَاءِ قَوْمٌ سَلْبِيُونَ.. هَؤُلَاءِ لَا يُطَوِّنُونَ بِالْأَرْضِ؛ لَا يَرْتَفِعُونَ وَلَا يَرْتَقُونَ، وَهَذَا خَطَأٌ!!

بَلِ الْإِيْمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ يَجْعَلُ الْأُمَّةَ مُنَافِسَةً لِلْأُمَّمِ كُلِّهَا، آخِذَةً بِالْأَسْبَابِ طَوَاعِيَةً وَاخْتِيَارًا، وَهِيَ تُنَافِحُ وَتُكَافِحُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ سَابِقَةً لِلْأُمَّمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَرَائِدَةً لِلْأُمَّمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

